

فصل المقال فيما بين أدب الرحلة والإثنوغرافيا من اتصال.

د. سليم درنوني - جامعة - بسكرة - الجزائر

د.علي رحامي- جامعة - بسكرة - الجزائر

Abstract :

There is recognition among some thinkers of Europe, the impact of the Arab cultural heritage to modern Western civilization, offset by the recognition deny this historical fact, through the pursuit of obliterating, or underestimated among others. This is why it is necessary to work on the examination of Arab heritage, diversity and abundance, study careful study and in-depth, especially those directly related to the science of anthropology work, these studies may lead to a re-history of anthropology of a new, or at least re-knowledge and the methodology of its assets, so they do not respond all Renaissance européenne only, but may exist in the Arab cultural heritage a lot of perceptions and insights about the human and human civilization sex, and aspects of daily life and its problems, which are still preoccupied anthropologists researchers contemporaries in the words of Syrian researcher Aissa Achemmasse.

الملخص :

هناك اعتراف لدى بعض مفكري أوروبا بتأثير التراث الحضاري العربي على الحضارة الغربية الحديثة، يقابل هذا الاعتراف تنكر لهذه الحقيقة التاريخية، من خلال السعي نحو طمسها، أو التقليل من شأنها لدى البعض الآخر. لهذا من الضروري العمل على فحص التراث العربي، بتنوعه وغزارته ودراسته دراسة متأنية ومتعمقة، لا سيما تلك الأعمال ذات الصلة المباشرة بالأنثروبولوجيا، قد تؤدي هذه الدراسات إلى إعادة تاريخ الأنثروبولوجيا من جديد، أو على الأقل، إعادة أصولها المعرفية والمنهجية، بحيث لا ترد جميعها إلى عصر النهضة (التنوير) في أوروبا فحسب، بل قد يوجد في التراث الحضاري العربي الكثير من المفهومات والنظرات عن الجنس البشري والحضارة الإنسانية، وأوجه الحياة اليومية ومشكلاتها، مما لا يزال يشغل بال الباحثين الأنثروبولوجيين المعاصرين على حد تعبير الباحث السوري عيسى الشماس.

(1) الإشكالية:

كثيرا ما نسمع عن "الإنسان غير المستقر"، الإنسان الرحالة، الإنسان المستكشف، الإنسان المغامر، ولسنا هنا بصدد الحديث عن تاريخ الرحلة وقدمها فهي قديمة قدم الإنسان، ولسنا بصدد الحديث عن الأقوام التي بدأت عندها الرحلة، فالبشر ما كانوا في يوم من الأيام ساكنين إلى الأرض مطمئنين إليها، إذ تنقل الإنسان وترحاله بين موطن وآخر هو ما عمر الأرض كما نراها اليوم، ولنا أن نؤكد بأن البشر في ترحال دائم منذ أن وجدوا على الأرض...

إننا نبتغي من وراء موضوع الرحلة والإنسان الرحالة، الحديث عن "أدب الرحلات"⁽¹⁾ من جهة اعتباره مرجعا مهما في علمي الإثنوغرافيا والإثنولوجيا؛ علم يهتم بتحليل وتفسير الحالة الثقافية للمجتمع بطريقة ممنهجة، والعناصر التي يستند إليها نجدتها وافرّة في كتب الرحالة عبر التاريخ، وعلم آخر يجد في أدب الرحلات مادة إثنولوجية جيدة صالحة للمقارنة مع غيرها من الرحلات عبر الأزمنة والأمكنة. وبهذا يحق لنا القول بأن أدب الرحلات لعب دورا أساسيا في توسيع أفق الإنسان ومعارفه، وقد صدق من قال: إن الرحلات تشكل أكثر المدارس تثقيفا للإنسان.²

وما يهمننا هنا هو ما اتصفت به أغلبية الرحلات -ولو بدرجات متفاوتة- بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل الرحالة لمشاهداتهم بأمانة وصدق، كما حرص معظمهم على التفرقة بين المشاهدة والرواية عند تسجيل معلوماتهم. هذه كلها سمات قد أصبحت الآن بمثابة قواعد أساسية من منهجية البحث الحقلّي في الدراسات الإثنوغرافية بالمعنى الحديث. الأمر الذي يدفعنا إلى فحص أعمال هؤلاء بحثا عن مدى امكانية اعتبارهم إثنوغرافيين حقيقيين؟ ومدى امكانية اعتبار أدب الرحلات إثنوغرافيا حقيقية من حيث المحتوى والمنهج ودقة الوصف؟

(2) مفاهيم الدراسة:

1- أدب الرحلات:

مما لا شك فيه أن الوقوف عند تعريف جامع و شامل لأدب الرحلة أمر صعب، وهذا ما يفسر تعدد التعاريف التي صاغها الباحثون والمهتمون بهذا المجال؛ يقول شعيب حلفي: وتأتي صعوبة تحديد وصياغة مفهوم للرحلة من عدّة اعتبارات أساسية منها: غياب تعاريف دقيقة توجد نصوص رحلية كثيرة ثرية ومتنوعة، وانفتاح النصّ الرحلي على عناصر أخرى متحركة تحضر أو تختفي بدرجات متفاوتة بين النصوص³. بيد أنه لا بأس من الوقوف عند بعض التعاريف عسى أن نخلص إلى تعريف شامل ودقيق.

جاء في معجم المصطلحات الأدبية لصاحبه مجدي وهبة: «أدب الرحلة: مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، و يجمع بين كل هذا في آن واحد⁴». والملاحظ في هذا التعريف أنه شاسع وفضفاض، فقد يدخل فيه ما ليس من جنس الخطاب الرحلي كالتحقيق الصحفي...

أما انجل بطرس فقد عرف أدب الرحلات ب: «ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدوّن وصفه له، يسجل فيه مشاهداته، وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير⁵».

الأدب - في المفهوم الحديث - لا يقتصر على الشعر وفنون النثر والسرد، بل تجاوز هذا إلى مختلف الفنون القولية والمكتوبة التي تعنى بقضايا الإنسان والحياة، فهو «علم يشمل أصول فن الكتابة، ويعنى بآثار الخطية والنثرية والشعرية، وهو المعبر عن حالة المجتمع البشري، والمبين بدقة وأمانة عن العواطف التي تعمّل في نفوس شعب أو جيل من الناس أو أهل حضارة من الحضارات⁶».

يشمل هذا التعريف ما يسمى بـ "أدب الرحلات"، حيث ينطبق على مدونات الرحالة الذي جابوا الأمكنة، ووصفوا بدقة أحوال الشعوب، وثقافتهم، خلال زمن زيارة الرحلة لهم. وما دام الرحال قد صاغ ما شاهدته وعاشه، بصيغة أدبية؛ فإنه يندرج ضمن فنون الأدب. فقد كان نص الرحلة يُبرزُ في نصوصه المتوارثة إسهام الشعوب، كبيرة وصغيرة، قديمة ومعاصرة في بناء الحضارة، متوخيا الموازنة بين المضمون والشكل ليحول منها وحدة مثنية⁷.

أدب الرحلة ليس بحثا في التاريخ ولا وصفا جغرافيا... كما أنه ليس قصة قصيرة، أو رواية، أو قصيدة شعر، وإنما هو هذا وذاك، ومن ثم يكتسب خصائصه المتميزة وطعمه العذب، وقدرته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع، وسبر غورها العميق. يقول الدكتور عماد الدين خليل: «إنها حركة في الطول والعرض والعمق، تجوال في جغرافيا الأماكن والظواهر والأشياء، وإيغال في النبض الذي كاد يغيب عن العيان، ولكنه ما يلبث أن يمنح سخاءه لأولئك الذين ينصتون جيدا للأصوات البعيدة، وهي تتشكل تحت جلد الظواهر والخبرات»⁸.

أدب الرحلة في بدء الأمر ومنتهاه، هو محاولة لاكتشاف سر الأشياء، والتعرف على تكوينها الذي يبدو أحيانا ككتل الجليد العائمة في المحيطات والبحار، لا يظهر منها سوى العشر، وتبقى الأعشال الأخرى مغيبة تحت الماء.

يظل أدب الرحلات معبرا عن التنوع الثقافي بين البشر الذي يشمل العادات والتقاليد في الطعام والشراب والتفكير والمعتقدات، والنظم الاجتماعية، وهذا واقع ضمن الدراسات الإثنوجرافية، التي تساعد على فهم مسار الحضارة الإنسانية، إذ إن التنوع الثقافي يساهم بلا جدال في التغيير والتطور الإنساني في مجمله⁹؛ وهي أيضا عون للجغرافي؛ عبر المعاينة المرئية التي يقوم بها الرحالة وما يصفه بدقة من أحوال البلدان وتضاريسها ومعالمها، وأيضا هي عون للمؤرخ في معرفة الجديد عن تاريخ البلدان والأقاليم، والتثبت مما ورد إليه من معلومات تاريخية¹⁰، وهي عون للباحث الأدبي (الناقد) في الوقوف على بنية الأسلوب،

والسرديات في عصر تسجيل مدونة الرحلة، لذا فإن التعامل مع أدب الرحلات من المنظور النقدي يكشف الكثير من الرؤى والفتيات الأدبية والأسلوبية.

ب- الإثنوغرافيا:

جاء في معجم الفلسفة لجميل صليبا أن الإثنوغرافيا هي: «علم اجتماعي يصف أحوال الشعوب، ويدرس أنماط حياتهم، ومختلف المظاهر المادية لنشاطهم في مؤسساتهم، وتقاليدهم، وعاداتهم، كالمأكل، والمشرب، والملبس، وغيرها»¹¹.

الإثنوغرافيا تعني أولا عملية البحث الميداني الذي يجريه الباحث الأنثروبولوجي في مجتمع البحث لجمع المعلومات (المادة الإثنوغرافية). وكما يرى الباحث المصري الدكتور: السيد حامد أن الإثنوغرافي يكتب مقالا أو تقريرا أو كتابا، إعتاد على تلك المعلومات، ومن ثم يكون التقرير الذي يعرف بـ«التقرير الأنثروبولوجي» نتاج الكتابة التي تتم في ضوء نظرية واحدة أو أكثر، تعتبر إطارا نظريا يوجه البحث الميداني وتفسير ثقافة المجتمع أو بنائه الاجتماعي أو نظام من نظمه الاجتماعية.¹²

من هذا المنطلق نعتبر الباحث الأنثروبولوجي يصنع معرفة تقدمها الكتابة الإثنوغرافية عن مجتمع معين وثقافته في زمن معين. ولكي تتحقق الموضوعية فيما يقدمه الإثنوغرافي من مادة علمية، يشترط أن يعتمد في صياغته لهذه المعرفة على وجهة نظر أفراد المجتمع أنفسهم، وهذا ما يسمى بالنظرة من الداخل، وبذلك يكون التقرير موضوعيا وعلميا يتميز بالواقعية الإثنوغرافية، وهو ما يمكن أن نطلق عليه (البلاغة الإثنوغرافية).

بهذا يتسنى للإثنوغرافي تقديم معرفة إثنوغرافية، معرفية عيانية محسوسة، تتمثل في الثقافة المادية التي يصفها، تعكس لنا عناصر ثقافية لا مادية، هي المعاني والدلالات التي تتمثل في العناصر المادية وتعبّر عنها.

(3) الإنسان والرحلة:

الإنسان منذ أن يولد حتى يموت في رحلات دائبة، تتعدد أشكالها بمرور الأيام وتغير الظروف والأحوال، بل إن لحظات ميلاده تعد رحلة من رحم الأم إلى رحم دنيا البشر،

وما وفاته ودفنه إلا رحلة ينتقل فيها من دنيا البشر إلى رحم الأرض تمهيدا لرحلة نهائية سرمدية تبدأ يوم ينفخ في الصور؛ وهناك رحلات كثيرة ومتنوعة في حياة الإنسان تتسع مساحتها وتمتد حركتها لتشمل الأرض وقد تمتد خارجها إلى كواكب أخرى.

تشير كتب التاريخ الطبيعي والأنثروبولوجيا وغيرها إلى أن الإنسان لم يتوقف عن الرحلة والتنقل، حتى بعد أن تعلم الزراعة وعرف كيف يستقر ويبني ويؤسس المجتمعات. لقد ظل على مدى العصور والقرون يتطلع بعينه إلى الافاق البعيدة، ولا يكف عن التفكير فيما تضمه من الخلق والموجودات، وفيما تحمله من الكنوز والخيرات، خاصة حين تضيق به الحال ويحف الماء والضرع، أو تضن الطبيعة عليه بما يملأ بطنه ويسعد قلبه.

الإنسان في كل الأحوال لا يكف عن السؤال...كيف، ولماذا؟ ومع تقدم الوعي وتجدد الحاجات، تزداد رغبة الإنسان في السؤال، وفي الانتقال والسفر، وتنوع الأغراض التي تدفع لهذا السفر. وإذ كان العالم اليوم قد أصبح قرية صغيرة، فإن العالم في الماضي، كان قرى كثيرة مبعثرة فوق رقعة هائلة من المعمورة، ولم يكن من سبيل لمعرفة الأحوال خارج القرية الواحدة إلا الترحال.¹³

الرحلة في الأدب بصفتها نصاً ثقافياً تنكشف فيه الذات انكشافاً إضافياً ومركزياً من خلال صورتين بارزتين هما صورتا: الأنا والآخر. فالنصُ الرحليُّ، بحسب شعيب حليفي، أحدُ أهمِّ النصوص الثقافية القادرة على كشف جوانب الهوية ومعرفة حساسيتها، ورصد استجاباتها وتفكيك مكوّناتها واستراتيجياتها الثقافية وأكثرها غنىً وأشدّها ثراءً وإنتاجاً للمفاهيم الثقافية لما يُقدِّمُه من تفاصيل متنوعة وزاخرة.¹⁴

ومن ثمّ لتحديد المنهج، الرحلة قبل القرن الثامن عشر كانت تستهدفُ خاصة في العالم الإسلامي، زيارة الأماكن المُقدّسة والمعالم الدينية، توكيداً لعمق روابطها ورموزها في مخيال المسلم، ودفاعاً عن حضورها في الثقافة والفكر. إلاّ أنّ الرحلة، بعد هذا التاريخ، ستطوّرُ أهدافها تحولاتٌ مهمة وأهدافٌ جديدةٌ من أبرزها: اكتشاف الآخر، وإدراك قوّته وتطلّعاته، ورصد إمكنته، ومعرفة تقاليده الثقافية...

4) الرحالة والإثنوغرافي:

يرى أحد الإثنوغرافيين ومستشار مشروعات التنمية في إفريقيا وآسيا، الأستاذ حسين محمد فهم، في إطار دراسة أدب الرحلات من منظور جديد، أن هناك صلة وثيقة بين أدب الرحلات والإثنوغرافيا، خصوصا وأن هذا الموضوع قد حظي حديثا بانتباه واهتمام دارسي أدب الرحلات، ومؤرخي الإثنوغرافيا بوجه خاص، وذلك في سياق بحثهم عن جذورها التاريخية، وتحديد موضوعاتها، علاوة على توثيق مناهجها. هذا إضافة لما يكتشفه الدارس لأدب الرحلات لبعض أساسيات المنظومة المعرفية للثقافة الإنسانية من زمن لآخر، أو بين مختلف المجتمعات.

وإذا بدأنا بمصطلح الإثنوغرافيا ذاته لوجدنا أنه كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات والقيم والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة. وفي مقابل هذا المصطلح نجد مصطلح آخر وهو الإثنولوجيا الذي يهتم بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الإثنوغرافية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية، أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية، من حيث أصولها وتنوعها. وبهذا تشكل المادة الإثنوغرافية قاعدة أساسية للبحث الإثنولوجي، فالإثنوغرافيا والإثنولوجيا مرتبطتان إذا وتكمل الواحدة الأخرى، وهما تشكلان مجالين دراسيين هامين في إطار مجالات الدراسات العامة للأنثروبولوجيا التي يقصد بها ذلك النسق المعرفي والمهجي لدراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا.

وبعبارة أخرى - خصوصا إذا استخدمنا المصطلحات المتداولة في كتب التراث العربي - فموضوع الإثنوغرافيا يتعلق أساسا بوصف طبائع البلدان، وخصال أهلها وأسلوب حياتهم. ففي كتاب أبي عبد الله المقدسي¹⁵ «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»¹⁶ ما يعد توضيحا مسهبا لطبيعة الموضوعات والمسائل التي تتصل بوصف الأقاليم وطبائع البشر، وطرائق الحياة، وهي كلها أمور رئيسية في الوصف الإثنوغرافي لأسلوب حياة مجتمع معين. ليس هذا فحسب، فرما يكون المقدسي أول من شعر بالحاجة إلى ضرورة إقامة علم يضطلع

بتلك المهات لما له من نفع وفائدة للخاصة والعامّة على حد سواء. ولا يتسع المجال هنا للاستشهاد بنصوص من كتاب المقدسي الدالة على ذلك بصرح النص.

ولا يعد المقدسي النموذج الوحيد، بل أمثاله كثيرون في التراث العربي، حيث نجد محمد بن عمر بن سليمان التونسي¹⁷، الذي زار السودان وهو في سن الرابعة عشرة من عمره، الذي ألم بأحوال إقليم دارفور وصفات أهله، ومظاهر الحياة الاجتماعية، في كتاب عنوانه: (رحلة تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) نشره عام 1850م.¹⁸

لقد قدمت ملاحظات الرحالة العرب وانطباعاتهم، من أمثال ابن بطوطة وابن جبير وابن فضلان وغيرهم كثير، زادا يمكن أن يفيد الباحث المختص في الدراسات الأنثروبولوجية أن يفسر ويحلل الصورة التي كانت لدى العرب عن الثقافات الأجنبية التي عاصروها وكيف فسروها، ولعل دراسة حسين محمد فهم وغيره لهذه النصوص مثال مفيد في إمكانات استثمار أمثال هذه القراءات الأنثروبولوجية.

5) الإتصال بين الإثنوغرافيا وأدب الرحلة:

على مستوى الموضوع والمضمون:

جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا أن «الانثوغرافيا علم اجتماعي يصف أحوال الشعوب، ويدرس أنماط حياتهم، ومختلف المظاهر المادية لنشاطهم في مؤسساتهم، وتقاليدهم، وعاداتهم، كالماكل، والمشرب، والملبس، وغيرها».¹⁹ يمكن لنا تحديد موضوع الإثنوغرافيا أولا وحسب ما هو متعارف عليه أكاديميا على حد تعبير حسين فهم حيث يقول: «إنه الوصف الدقيق والمتربط لثقافات المجتمعات الإنسانية».²⁰ فموضوع الإثنوغرافيا يتعلق أساسا بوصف قيم الناس، وحياتهم اليومية، والعلاقات الاجتماعية. ويحصل الإثنوغرافي على المعلومات بطرق مختلفة تشمل الحديث مع أعضاء المجتمع وتصوير أنشطتهم على شرائط، وتحتاج الإثنوغرافيا إلى رهافة الحس والقدرة على التحدث بلغة الناس الذين يُدرسون. وعلى العالم الإثنوغرافي أيضا أن يندمج مع الناس ليفهم ثقافتهم. وفي نفس الوقت

يجب عليه أن يستمر ملاحظاً علمياً مستقلاً، وأن يترجم المعلومات عن الثقافة بعناية حتى يمكن الاحتفاظ بالمعنى الأصلي لها.

وتعد الدراسة الإثنوجرافية سلاح الميدان فيما يتعلق بعلم دراسة الإنسان. وتضم إجراءات جمع البيانات، التي يطلق علماء دراسة الإنسان عليها "العمل الميداني"، والنظر والسؤال (الملاحظة والمقابلة الشخصية). وفي أغلب الأحيان يقوم الاختصاصي في الدراسات الإثنوجرافية بدور الملاحظ المشارك، أي بدور شخص خارجي يوجد في مسرح الأثلاث، ربما لمدة عام أو أكثر، وذلك لكي يعرف عن مجموعة ما. وقد يعني هذا دراسة قرية نائية في مكان ما أو ثقافة مختلفة في بلده نفسه.

يستطيع قارئ نصوص أدب الرحلات اكتشاف ما تزخر به هذه النصوص من مضمون اثنوجرافي، ومدى تنوع مادة الرحلات من ناحية الموضوع والزمان والمكان، حيث تتنوع هذه المادة بين وصف الأقاليم وطبائع الناس، ووصف العادات والتقاليد الدينية والإثنية... فالرحلات تبرز لنا طبيعة التنوع الثقافي بين البشر رغم اشتراكهم في الحاجات الأساسية: كالطعام والسكن والإنجاب والحماية. وتأتي الثقافة كثمرة التفاعل بين الإنسان والكون ومتطلبات الحياة؛ وظاهرة التنوع الثقافي التي تشكل الموضوع الأساسي في الدراسات الإثنوجرافية المقارنة تساعدنا على فهم مسار الحضارة الإنسانية.

وإننا نجد في مؤلف المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مزج بين الرحلة والإثنوجرافيا، تفاعل بين الحس الإثنوجرافي والنزعة الأدبية التي يعكسها جمال الوصف وحسن التعبير. وما يقال عن المقدسي يقال عن التونسي، وذلك في إطار وصفه لإقليم دارفور وصفات أهله وعوائدهم؛ ضف إلى ذلك العديد من الرحلات التي قام بها الرحالة المسلمون وحاكوا فيها ابن بطوطة الذين وصفوا وصفا لا يختلف عن الوصف الإثنوجرافي الكثير من مظاهر الحياة الثقافية للجزر التي زارها ابن بطوطة، وزاروها من بعده. ولا يقتصر الأمر على هؤلاء فقط، بل هناك من الأدباء المعاصرين من يهوى الرحلة، مثل الرحالة المصري أحمد حسنين الذي وصف عوائد بدو برقة، خاصة الأخذ بالثأر، والدية، والزواج والعديد من القوانين العرفية، التي تعرف بها المجتمعات البدوية.

وفي جميع الأحوال ، يظل أدب الرحلات معبرا عن التنوع الثقافي بين البشر الذي يشمل العادات والتقاليد في الطعام والشراب والتفكير والمعتقدات، والنظم الاجتماعية، وهذا واقع ضمن الدراسات الإثنوجرافية، التي تساعد على فهم مسار الحضارة الإنسانية، إذ إن التنوع الثقافي يساهم بلا جدال في التغيير والتطور الإنساني في مجمله.²¹

على مستوى الدراسة والمنهج:

وبخلاف البحث التجريبي الذي يتحكم الباحث في أحواله، فإن اختصاصي الدراسات الإثنوجرافية يدرسون ظواهر بحالتها الطبيعية دون تدخل منهم قدر الإمكان. واختصاصيو الدراسات الإثنوجرافية هم أنفسهم الأدوات الرئيسية لجميع البيانات، بمعنى أنهم يعتمدون على أنفسهم أكثر من اعتمادهم على الاختبارات والاستبيانات، في حالة استخدامها على الإطلاق. وعلى العكس من الباحثين الذين يستخدمون المسح والتجريب ويحددون أسئلة البحث مقدما، فإن الاختصاصيين في الدراسة الإثنوجرافية يطورون ويعيدون أسئلتهم وهم يتعلمون في الميدان.

وبالنظر إلى مسألة المنهج في نصوص الرحالة القدامى، نجدهم قد جمعوا مادتهم، ودونها على أساس منهجي تشابه، بل يفوق أحيانا القواعد المنهجية المتعارف عليها في ما يعرف اليوم بالدراسات الإثنوجرافية، وقد سبقنا إلى هذا الطرح الدكتور حسين فهمي في كتابه (أدب الرحلات).²² لقد أبرز المقدسي في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" قيمة الرحلة والتجوال في جمع المادة، وضرورة المعاينة الشخصية والملاحظة المباشرة والمعايشة والاختلاط مع الناس، عليه القوم وعامتهم... وهذا ما يدعو إليه الإثنوغرافيون المحدثون في جمع المادة الإثنوجرافية من الميدان عن طريق الملاحظة بالمشاركة والاعتماد على الاخباريين. علاوة على الصفات الشخصية التي يجب أن يتحلّى بها الرحالة والباحث، وهي جزء أساسي في المنهج الإثنوغرافي.

6) معرفة لغة مجتمع البحث لدى الرحالة والاثنوجرافي:

يوصى في الدراسات الإثنوغرافية بضرورة معرفة لغة المجتمع محل الدراسة، لما للغة من صلة بالثقافة، وقد عرف الرحالة على اختلاف مللهم ونحلهم لغات المجتمعات التي رحلوا إليها، وجعلتهم يقرأون لها ويتفهمون ثقافتها من منظورهم. فالدراسة بلغة مجتمع الدراسة تفيد في الرجوع إلى تراثها، واستقصاء المعرفة من أصولها، ومن داخل المجتمع ذاته.

7) أنثروبولوجيا ما قبل علم الأنثروبولوجيا:

في مقال قرأته على صفحات جريدة الحياة بعنوان: «أنثروبولوجيا المكان والرحلة ورؤية الآخر» يتحدث محمد جمال باروت عن سبب اهتمام مؤرخي الأدب بالرحلة أكثر من مؤرخي الأنثروبولوجيا، رادا ذلك إلى ضعف الدرس الأنثروبولوجي العربي.²³ وما بهم هنا في مجال العلاقة ما بين الأنثروبولوجيا والرحلات هو مجال رؤية الآخر. ومن هنا فإن تاريخ الأنثروبولوجيا يضع الرحلات في إطار البواكير الأنثروبولوجية أو أنثروبولوجيا ما قبل علم الأنثروبولوجيا.

إن الرحلات تمثل الجانب النياسي أو الاثنولوجي Ethnologie من الأنثروبولوجيا العامة، بما هي الاثنولوجيا النظرة التي تلقيا الأنا على الآخر البعيد، والذي قد يكون مختلفاً عنها كل الاختلاف. إن الاثنولوجيا قد ولدت من تنوع الثقافات واختلافها، ولكن شاب تاريخها كثير من الصور النمطية التي تفضي إلى وضعها في إطار مباحث رؤية العالم.

8) الخاتمة:

مما تقدم نستخلص أن هناك اصلا كبيرا بين الأثنوغرافيا وأدب الرحلة، سواء على مستوى الموضوع أو على مستوى المنهج، وقد نجد العديد من كتابات الرحالة كتابات إثنوغرافية كما عند المقدسي، وقد عبر عن ذلك تعبيرا مباشرا، وبالتالي كانت الدراسة الإثنوغرافية للتنوع الثقافي الذي لاحظته وعائشه هدفه الأساسي.

إن الرحلة متطلب أساسي للدراسة الحقلية الإثنوغرافية، إنها وسيلة لغاية هي وصف المكان والناس والثقافات... في حين تشكل الرحلة لدى الرحالة الموضوع والهدف، ويأتي الوصف للمكان والناس والثقافات في إطار حكاية الرحلة ذاتها. وقد عبر حسين فهم عن ذلك قائلاً: «إنه إذا قلنا إن أدب الرحلات يصور أساساً خبر اتصال الرحلة بثقافة معينة أو عدة ثقافات، فإن الإثنوغرافيا تهدف إلى وصف وتحليل الثقافة أو الثقافات ذاتها».²⁴

وما نصبوا إليه من خلال هذا الموضوع، هو أن نطرح منظورا موسعا للإثنوغرافيا بحيث يتضمن دراسة الثقافة بمعناها الواسع كما وردت في تعريف تايلور، سواء ارتبطت بمجتمع معين في الوقت الحاضر، أو بثقافة عصر أو مجتمع في الماضي، حيث يسعى الإثنوغرافي إلى إعادة تصوير أوجه الحياة اليومية والعناصر الحضارية، مادية كانت أو روحية.

المراجع والهوامش:

¹ تأتي رحلة البيروني (ت 440هـ) المسماة (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردوثة) نموذجاً فذاً، إذ تعدّ وثيقة تاريخية مهمة تجاوزت الدراسة الجغرافية والتاريخية إلى دراسة ثقافات مجتمعات الهند القديمة، إذ يتناولها البيروني بالتحليل ويقارن بينها وبين اللغة العربية على نحو جديد.

ثم يأتي ابن بطوطة، وهو أعظم رحلة المسلمين، وقد بدأت رحلته عام (725هـ) من طنجة بالمغرب إلى مكة المكرمة، وظل زهاء 29 سنة يرحل من بلد إلى بلد، ثم عاد في النهاية ليجلي مشاهداته وذكرياته على أديب كاتب يدعى محمد بن جزي الكلي، بتكليف من سلطان المغرب، وسمّى ابن بطوطة رحلته: (تحفة النظار في غرائب الأمصار ونجائب الأسفار)، وروى ابن بطوطة مشاهداته لبلدان إفريقية، وكان هو أول مكتشف لها، كما صور الكثير من العادات في مجتمعات الهند، بعد ثلاثة قرون من الفتح الإسلامي لها. وهذه لرحلة في عموها صوّء شاملة دقيقة للعالم الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري، وبها إبراز جوانب مشرقة للحضارة الإسلامية وشعوبها، بما لا نجد في المصادر التاريخية التقليدية.

² عبارة مقتبسة من كتاب (الرحلات عام 1785) للكاتب الفرنسي سافاريت، قدمه لآخ الملك لويس ملك فرنسا في ذلك الوقت.

³ حليبي شعيب، الرحلة في الأدب العربي: (التجنس... آليات الكتابة... خطاب المتخيل)، رؤية للنشر، القاهرة، 2006، ص 81.

⁴ وهبة مجدي، معجم المصطلحات الأدبية، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة 02، سنة 1984.

⁵ بطرس إنجيل، الرحلات في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، العدد 7، السنة 83، يوليو 1975، ص 52.

⁶ جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 2، 1984م، ص 316.

⁷ المرجع نفسه، ص 316.

⁸ عماد الدين خليل، من أدب الرحلات، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، سنة 2005، ص 06.

⁹ د. حسين فهم أدب الرحلات، دراسة تحليلية من منظور إثنوجرافي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م، ص 52.

¹⁰ المرجع نفسه، ص 97.

¹¹ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، سنة 1982، ص 36.

¹² السيد حامد، المتحف الإثنوجرافي والذاتية الثقافية الاجتماعية (دراسة في أنثروبولوجيا مصر)، المكتبة المركزية الجديدة، جامعة القاهرة، ص 01.

¹³ أنظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة دار العربية للكتاب، القاهرة - مصر، الطبعة الثانية، سنة 2002، ص 18.

¹⁴ حليفي شعيب، الرحلة في الأدب العربي: (التجنس... آليات الكتابة... خطاب التخيل)، مرجع سابق، ص 81.

¹⁵ اللؤلؤ بمعجبين أحمد بن أبي بكر المقدسي - المعروف باسم محمد بن أحمد شمس الدين المقدسي أو المقدسي اختصاراً، هو رحالة مسلم ولد في القدس سنة 336هـ/947م نشأ بها احترفاً للتجارة فكثرت أسفاره حتى صار رحالة جغرافياً، وصنف كتاباً أسماه "أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم" وقد أكسبه شهرةً كبيرةً. توفي في سنة 380هـ/990م.

¹⁶ شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي، أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم، ترجمة وتحقيق دي غويا، دار صادر، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان، سنة 1990 نسخة إلكترونية بصيغة PDF.

¹⁷ الرحالة "محمد بن عمر التونسي" المولود في عام 1789م من أب تونسي وأم مصرية، وقد نشأ في القاهرة وتلقى دروسه في الأزهر الشريف حتى بلغ سن الرابعة عشرة، ثم سافر إلى دارفور عام 1803 ومكث فيها حوالي سبع سنين ثم سافر إلى تونس وبعدها استقر في القاهرة. عمل مصححاً لغويًا في مجلة «الوقائع المصرية». ثم التحق بالجيش المصري. وعمل في وظيفة واعظ بأحدى فرق المشاة، كما اشتغل بتفسيح الترجمة العربية لكتب الطب التي كانت تدرس لكلية الطب بأبي زعبل، عام 1839، وكتب عن رحلته إلى السودان. ثم قام بإلقاء الدروس الدينية في مسجد السيدة زينب بالقاهرة حتى وفاته. وتوفي في عام 1857م.

¹⁸ محمد بن عمر التونسي، تشييد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، حققه وكتب حواشيه خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، راجعه محمد مصطفى زيادة، دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة-مصر، سنة 1965. نسخة إلكترونية بصيغة PDF

¹⁹ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، سنة

²⁰ د. حسين فهم، أدب الرحلات، دراسة تحليلية من منظور إثنوجرافي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م، ص 44.

²¹ المرجع نفسه، ص 52.

²² المرجع نفسه، ص 56.

²³ محمد جمال باروت، أنثروبولوجيا المكان والرحلة ورؤية الآخر (الرحلة العربي بين لحظتي ابن فضلان والطهطاوي)، جريدة الحياة، تاريخ النشر: 2004/08/21، العدد: 15121، باب التراث، ص 15.

²⁴ د. حسين فهم، أدب الرحلات، مرجع سابق، ص 63.

